الفصل السادس

المرأة في شعر العشماوي

صفحة بيضاء ٨٤

المرأة في شعر العشماوي

وماذا عن المرأة في شعر العشماوي؟:

ممَّا لاشك فيه أنَّ لأمه أثراً كبيراً في نظرته للمرأة؛ إذ جسَّدت له الفضيلة والطهر والعفاف والحب والوفاء والإخلاص والإيثار والتضحية، وإنكار الذات، فالمرأة في نظره هي الأمومة في اجلِّ معانيها، ولعلَّ قصائده لأمه، وعن أمه في ديوانه "إلى حواء"، وقصة " بائعة الريحان" تعطينا صورة واضحة لمعنى الأمومة لدى هذا الشاعر:

بائعة الريحان

من يا ترى بائعة الريحان

امرأة تخمشها

مخالب التسعين

في وجهها المجعد الجبين

إشارة إلى تعاقب السنين

وإن كان الشاعر يريد بقصة بائعة الريحان أن يعبر عن ألمه، وعمَّا حلَّ بقريته من طغيان مظاهر المدنية الحديثة التي أفقدتها هدوءها ونقاءها وصفاءها، فلقد استطاع من خلالها أن يصوِّر لنا صمود بائعة الريحان "الأم" أم شريفة أمام مغريات الزمن بعد فقدها لزوجها، إذ صارت بائعة للريحان في قرية "النشامرة" تبيع في سوق السبت "الشيح "و"الريحان "، وربما تبيع " قرن

موز وربما قرنين " امرأة تصارع الهرم، فبعد وفاته بدأت رحلة العناء، وصارت "بائعة الريحان"[1]، فالأمومة في بائعة الريحان تعني الجهاد والكفاح والتعب وإنكار الذات.

والمرأة في نظره هي الزوجة، والزوجة تعني له المودة والسكن والرحمة، كما جاء في الذكر الحكيم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)

وهاهو يخاطب رفيقة عمره في قصيدة "رحلة العمر"قائلاً:

من معانيك استقي ألحاني

فاهتفي يا ندية الأحزان

افرشي هذه الطريق وفاء

فطريقي مفروشة بالحنان

ظللي عُشنا الجديد بروح ال

حب حتى نعيش في اطمئنان

رحلة العمر يا رفيقة عمري

زادها الحب والرضا والتفاني

أنتِ عزفُ الرضا على وتر القل

ب ولحن الوفاء في وجداني

(١) ديوان بائعة الريحان.

أنتِ معنى من الطهارة يسمو

بفؤادي عن مغريات الزمان[1]

والمرأة هي الأخت التي يحرص على شرفها، ويقدم لها النصح لتسير على منهج الله، ولا تتبع أهواء الشيطان، فيقول لها:

أختاه يفقد هذا الكون معناه

لولا رضانا بما يقضي به الله

أختاه يا شمعة للعطف موقدة

ويا نشيداً فم الإخلاص غنَّاه

إليك أرسلتُ أشعاري مغردة

والأفق صاف ولحن الشعر تيَّاه

إذا وصلنا برب الكون أنفسنا

فما الذي في حياة الناس نخشاه[1]

ويقول في قصيدة " أختي" يقول:

أختي .. وفي أخلاقكن

لكُنَّ يا أختي كرامة

أختي .. وللفتيات في

درب الهدى أغلى سلامة

(١) ديوان إلى حواء.

أختي... وأنت فتاة غض

ن تُستذَّل به الشهامة

كوني ..أجل من الحيا

ة إذا جرت فيها السآمة

أختي... وفي أحشاء دنـ

يانا وبئس بها مجون

نِعم الفتاة المستقيمة

لا تحيط بها الظنون

تسمو بصدق عفافها

ولرمز عزتها تصون[1]

ثُمَّ يقول مبيناً مصير من تسيرها اللذات؛ إذ لا تجني إلاَّ العذاب والحزن والندم:

أختي .وكم حمقاء أغر

قها اللذات المهينة

فغدت.. وكانت حرة

لقيود لذتها رهينة

(١) المصدر السابق.

تـــهـــــــــــفـــو إلـــى حـــــريـــــة

فـــتـــصـــيـــــر تـائـهـــة سـجـيـنـــة

وتـــسـوقـــهـــــــا أوهـــامـــهـــــــا

فـــــــهـي المـعـذبـــة الـحـــزيـنـــة

حـــــريـــــة الإنـــــســـــــان ألاَّ

يـــســـــتـــبـــد بـــــه هـــــواه

يـــرقـــى بـــصـــدق يـقـــــــــينـــه

وتـــســـــيـــر ثـــابـــتـــة خُـــطـــاه

أخـــــتـــــاه لـــــــوذي بـــــالـــذي

مـــا خـــاب يـــومـــاً مـــن دعـــــاه

وتمـــســـكـــــي بـــهـــــــداه فـــــال

إشـــــــراق يـــــا أخـــتـــي هـــــداه

أمَّا في قصيدة "ضدان" فإنَّه يبين من خلال حوار بينه وبين أخت مسلمة أنَّ هناك إزدواجية في سلوك بعض نساء الإسلام؛ إذ يجمعن بين ضدين لا يلتقيان، وهما الإسلام والفسق أو الانحراف فيبدر منهن السفور والتبرج والابتذال وهو لا يليق بامرأة تدين بدين الهدى، والقصيدة من ثمانية عشر بيتاً فأورد مقتطفات منها تبين المضمون والهدف: إذ التقى الشاعر بفتاة حسناء فسألها:

مـن أيـن أنـت فـــــــإنَّ بـي شـغـفـــــــاً

وإليك نـفـــسـي ـ لـهـــفـــة ـ تـعـــدو

قـالـت وفـي أجـــفـــانهـــا كـــحـل

يـــغـــري وفـي كـلـمـاتـهـا جـــــد

عـــربـــيـــة حـــريـتـي جـعـلـت

مـنـي فـتـــاة مـــالـهـا نـــــد

أتمشى بقـــــاع الأرض مـــــا سنحت

لـي فـرصـــة بـالـنـفـس أعـــتـــد

عـربـيـة فـــســـألـت:مـــسلمـــة؟

قـــــالـت: نـعـم ولـخـالـقـي الـحـمـد

فـــســـألـتـــهـا، والـنـفس حـــائرة

والـنـــار فـي قـلـبـي لـهـا وقـــد

مـن أيـن هـذا الـزي؟ مـا عـــــــرفـت

أرض الـــحـــجـــاز، ولا رأت نـــجـــد

هـذا الـتـبـذل يـا مـــــحـــدثـتي

ســهـم مـن الإلـحـاد مـرتـــــد

فـتـنـمَّـــــــرت ثُـمَّ أنـثـنـت صـلـفـاً

ولـسـانـهـا لسـبـابـهـا عَـبـد

قـــالـــت: أنـــا بـــالـنـفس واثـقـــــــــة

حـــريـتـــي دون الـهـــوى ســـــــــــد

فـــأجـبـــتـهـــا ـ والحـــزن يعـــصف بي

أخـــشـى بـــأن يـتـنـــاثـر الـعـــقـــــد

ضِـــدَّان يـا أخـــتـــاه مـا اجـتـــمـعـــا

دين الـهـــــديوالـفـــــسـق والـصـــد

والـلـــه مـــــــا أزرى بـــأمـــتـــنـا

إلاَّ أزدواج مـــالـــــــه حـــــــــــد[1]

وهذه حقيقة فإنَّ سبب ما حلّ بأمتنا من ضعف وخوار، وما أصابها من تحلل وانحدار هذه الإزدواجية فمعظمنا مسلم بالتبعية، ولكنه لم يسلك سلوك الإسلام، ولم يتخلق بأخلاقه، وقد استطاع الشاعر العشماوي ـ بهذه القصيدة ـ أن يُطوِّع الشعر لمعالجة قضية من أخطر قضايا الانحراف في مجتمعنا الإسلامي، وهي سفور المرأة المسلمة وتبرجها وتبذلها مبيناً أنَّ المسلم الحق ينبغي أن يبتعد عن هذا الفسق والتبذل.

كما كان صادقاً في تصوير مرارته وعمق حزنه وآلامه لهذا الوضع، ونلمس هذا الصدق، ونشعر به في قوله:

فـــســـــألتـــــها والـنـفس حـائـرة

والـنـار فـــي قـلـبـي لـــهـــــــا وقـــد

(١) المصدر السابق.

فـــأجـــبـــتـــهـــا ـ والحـــزن يعـــصف بي

أخـــــــــشـى أن يـتـنـاثـر الـعـــقـــد

وكان صادقاً أيضاً في تصويره غرور بعض النساء، واعتدادهن بحريتهن تلك الحرية الوجودية المطلقة التي لا ضابط لها ولا رابط، فأباحت ما حرَّمه الله، إذ عبَّر عنها بقوله:

فـــتـنـمَّـــرت ثُـمَّ انتـــشـت صلـفـــاً

ولسـانـهـــا لسـبـــابـهـــا عـــبـد

قـــــالـت: أنـا بـالـنـفـس واثـقـــــة

حُـــــــريـتـي دون الـهـــــــوى سـد

فقصيدة "ضدان" قصيدة بليغة أوجزت حال المرأة المسلمة المعاصرة، وبيَّنت سبب ضعف أمتنا الإسلامية وخوارها في أبيات قليلة، فالشاعر هنا أوجز وأصلح وأجاد.

وهكذا يتبين لنا أنَّ الشاعر العشماوي قد نظر إلى المرأة نظرة الإسلام لها، وهي نظرة تكريم وتقدير واحترام، فهي إنسانة حرة كريمة طاهرة عفيفة، وحرص في شعره على المحافظة على إنسانيتها وكرامتها وعفافها، بل حثها على الحفاظ على طهرها وكرامتها، ونلمس حرصه هذا في قوله في قصيدة " كأس الهوى":

يـا ورة مـــا اســـتـطـعتُ ألمســـهـــا

أخـــــشـى بـأن يـفـــســـــدهـا اللـمـس

للطهر في أعماقنا ألق

يسمو بنا وبحرصنا يأسو[1]

ونجده يقول في قصيدة " قراءة في وجه الصمت":

وهل يكون الحب ذا قيمة

إذا خلا من لذة الطهر[2]

هنا قد جعل للطهر لذة، وأية لذة تفوق هذه الشهوة، فلذة الطهر تكسب صاحبها رضا الله وحبه، كما تكسبه احترامه لنفسه واحترام الآخرين له حقاً فإنَّ الحب لا قيمة له إذا كان لا يظلله الطهر والديانة؛ إذ بدونهما لا يعدو عن كونه ضرباً من العهر

ـ حبٌّ فإن مسَّتهُ كفٌّ الخنا

فقد غدا ضرباً من العُهْرِ[3]

ويقول في قصيدة أخرى " بعض أوراقي ":

ولا تحسبي أنَّ حبي سوف يجعلني

أُقرُّ نفسي على عصيان خلاَّقي[4]

فهو يقر هنا أنَّ حبه طاهر عفيف، ولن يرضى لنفسه أن يجره إلى عصيان خالقه، أي أنَّ الحب الذي سيجره إلى المعصية لا يقره ولا يرضى به، فإنَّ قوة إيمانه ستجعله يتغلب على الضعف البشري، فأي حب يجر إلى

(١) المصدر السابق. (٢) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق. (٤) المصدر السابق.

المعصية، ومسته كف الخنا، فلن يستسلم له، وهنا يبرز في مدى قوة إيمان هذا الشاعر الذي يصبر عن المعصية.

ولا تحـــسـبي أنَّ حـــبي ســـوف يجـــعلني

نفـــسي علـى عـــصـــيـــان خـــلاقي

ما أسماه من معنى، وما أروعه، وما أجمله، وما أبلغه!

ويستمر الشاعر في إبداعه الذي مصدره قوة إيمانه، فيقول في قصيدة " سرج الأمل ":

إن كـــــان بُعـــــد المرءِ عـن إيمـانِـهِ

داءٌ فـــإنَّ القُـــربَ منـه عـــلاجُ[1]

وهكذا نجد أنَّ الإيمان قد هذَّب عواطف هذا الشاعر، وارتقى بها إلى مراتب عليا من الطهر والعفاف، فجاء تعبيره الشعري عنها فيضاً من الإبداع، ترتاح له الأنفس، وتطرب لسماعه الآذان، وتنشرح له الصدور، فيصلح الفاسد، ويُقوَّم المعوج.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا مدى عمق أثر أم الشاعر العشماوي على شخصيته، ونظرته للمرأة، فاحترامه لأمه، واحترام أمه لنفسها، وتضحيات أمه، وسمو أخلاقها وطهرها وعفافها، وقوة إيمانها، كل هذا غرس في نفس هذا الشاعر هذه العقيدة الراسخة، وهذا الإيمان الصادق القوي المتدفق، وهذا التقدير للمرأة فنظر إليها نظرة إكبار وإجلال، وجاء شعره معبراً عمَّا كتبه في إهدائه لحواء ديوانه " إلى حواء"؛ إذ قال في هذا الإهداء:

(١) المصدر السابق.

(حـواء في حيـاة آدم تعني العطاء. ومـا أعظم كلمـة العطاء.. حـواء تعني الأمـومة .ومـا أعظم كلمـة الأمومـة، حواء تعني السكن والمودة والرحمـة، ومن ذا الذي لا يريد السكن والمودة والرحـمـة؟؟ حواء أم له كيـانه الخـاص. وعطاؤها يظل عظيـمـاً مـا حـافظت على ذلك الكيان هذه حـواء .وهذا ديواني المتـواضع "إلى حواء")[1].

(١) المصدر السابق.